

ومحمد لم يكن يعرف القراءة ولم يكن في حياته قد أمسكت يمينه بالقلم، ولم يكن في مقدوره في تلك اللحظة أن يعرف عن طلب منه أن يقرأ شيئاً.

استفسارات متنوّعة، ورغم ذلك يظلّ جبريل منذ اللقاء الأول يكرر كلمة ﴿إِقْرَأْ﴾ وفعل الأمر مقتضاه: أن ينفذ المطلوب ما طلب منه: أن يقوم، أن يتحرّك، أن ينطق، أن يؤدي أي شيء، ولكن محمداً لم يمكنه إلا أن يرد: «ما أنا بقارىء».

لحظات تمرّ خفافاً أم ثقلاً؟ لا أحد يدري غير أن اليأس لم يجد سبيلاً الى النفوس، ثم يقرأ محمد: ﴿إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (1).

في هذا الموقف كررت كلمة القراءة عدة مرات؛ ليكون التكرار قانوناً يحكم الربط بين المؤثّر والاستجابة، وليزداد الشوق والتشويق حتى يبلغ أقصى درجات التلهف إلى ما تتوق إليه النفس المتعطشة إلى الاطلاع على دروب المعرفة الإلهية.

ومن خلال هذا القلق، تتمّ عملية الوحي في جوّ من المعاناة والضغط حيث يخرج منها النبي وجبينه يتفصّد عرقاً، وجسمه يرتعد؛ ليحسّ بعد ذلك بأن للإعداد لمثل هذه المهمة لذة ومثمة يدركها المُعدُّ حيث يقف لتأدية الرسالة التي أنيطت به.

ومن ثم ندرك - مع الفارق - مدى صعوبة العملية التعليمية دراسة وزمناً؛ فقد استغرق نزول القرآن مدة ثلاث وعشرين سنة وبالقياس - إن صح - نستطيع أن نقول: إنها المدة التي ينهي فيها الطالب مرحلة تعليمه العالي «الجامعي».

(1) سورة العلق، الآيات: 1، 2، 3، 4، 5،